الفصل الخامس

الفطرة ونزعاتها

تضاربت آراء الباحثين فى نزعات الفطرة فمنهم من ذهب إلى أنها خير، ومنهم من ذهب إلى أنها شر، ومنهم من رأى استعدادها للأمرين، ومنهم من رأى خلوها منهما.

ذهب الفيلسوف الإغريقى سقراط إلى أنها خير، ونفس الطفل فى نظره وعاء لأصول الكمال. فعوّل فى طريقة تعليمه على السؤال والمناقشة فى أى غرض يريد، لا فرق بين أن يكون الطالب طفلا أو صبيا، شابا أو كهلا، وله طرق خلابة يستميل بها المسؤول إلى إجابة أسئلته بحال يسبر بها أعماق مداركه ويساعده على إدراك الحقيقة. وكان مع جلال قدره وعظيم خبرته، وتوقد قريحته يتدلى إلى أفق التلميذ، ويختار له من الأمور ما يوافق هواه وفى وسعه الإجابة عنه، ثم يناقشه ويسوق له الحقائق باحثا ومنقبا. ولا يزال ينبهه بالتدريج على الخطأ، ويفتح له أبواب الصواب بتأليف المقدمات واستنباط الضوابط حتى يصل به إلى شاطئ الحقيقة سالما.

بهذه الطريقة البديعة انقادت لسقراط العقول الشاردة، والميول الخامدة والحقائق الفذة. وتبعه فيها فريق من رجال التربية والتعليم لما اشتلمت عليه من دلائل الرصانة والحكمة.

وذهب أفلاطين إلى أن الفطرة شر والنفس فى نظره جوهر مجرد مستقل [illegible]

من العالم العقلى إلى عالم المادة لتبتلى. وبينما هى فى أثناء الحياة المادية، يمكن اتصالها بالعالم العقلى بتصفيتها من أدران اللذات، وأخذ الجسم بأشد أنواع الحرمان من ألوان الطعام والشراب، وحصر الفكر فى أمر هذه القربى، والتخلص من كل ما له علاقة بالعالم المادى، والتجرد من زخرف الدنيا ومن الميول النفسية. ومن يمرن نفسه بهذه الرياضة يرهقها بالآلام والمشاق. ويرهف حدها بدوام الصوم. وإهمال مطالب الجسم من النظافة واللبس والغذاء وقتل الحواس، والعزلة عن الناس. فإذا تم له ذلك فإن النفس تتطلع إلى العالم العلوى، وتتوق إلى ما حواه من جمال وصفاء، وتتصل بمبدعها. فاتصال النفس الطاهرة الأصل بالعالم المادى حول فطرتها وصبغتها بصبغة الشر. وقد جرى على هذا المبدأ أبو الطيب المتنبى، إذ يقول:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

وتبعه أبو العلاء المعرى فاعتقد أن الإنسان شرير بطبعه والفساد غريزة فيه. وقد ثبته على هذا المبدأ ما عاناه من الآلام من رفاقه فاعتزلهم مفتخرا بأنه رهين المحبسين « العمى والعزلة » ومن قوله فى هذا المعنى:« ومن جرب الأقوام أوسعهم ثلبا »

وقد غلا فى هذه العقيدة حزبان كبيران اشتهرا فى القرن الثامن عشر، وهما اليسوعيون واليانسيون، فقد حملا لواء التعليم، وألفا الكتب، وبنيا المعاهد العلمية، وسنا الأنظمة المؤسسة على عقيدة أن الإنسان مفطور على الشر، ولا يحوله عن هذه الفطرة السيئة إلا صارم العقاب ولذيذ الجزاء، وتوسعا فيهما بدرجة خرجت عن الحد المقبول والمعقول

وفى آخر هذا القرن ظهرت مؤلفات جان جاك روسو، وتولى الرد فيها على من ظلم الفطرة الشريفة بنسبة الشر إليها، ووجه سهام مطاعنه الصلبة إلى هذين الحزبين فيما وضعاه من الأنظمة، وأقراه من المناهج وسلكاه من السبل التى حرمت النشء مساكنة الطبيعة واستجلاء محاسنها، وقراءة أسطر الجمال فى صفحاتها. وقف موقفه هذا بين الفرنسيين حاملا بين جنبيه نفسا أبية ولسانا ذلقا. واكتسب

فطانته من وحى الفطرة لا من الممارسة، وكانت نفسه تواقة إلى الرجوع إلى محاكاة الطبيعة والبعد عن زخارف الصناعة. وقد وصلت دعوته إلى أعماق قلوب العقلاء فالتفوا حوله، وألف منهم عصبة ناوأت هذين الحزبين وهزئت بعلية القوم منهما حتى قام من أجلها نذير الشر، وتأججت بينهما نار العداوة، وكانت من مثيرات الثورة الكبرى التى قلبت فرنسا ظهرا لبطن. فانتهز هذه الفرصة وشرع يغرس فى أرض هذه الأنقاض أشجار الأفكار الصحيحة.

درس روسو الطباع الإنسانية بالعيان، فكان يحتجب عن النشء بحيث يراهم ولا يرونه، ويتفقد حديثهم فيما بينهم، وحركاتهم التى لا رياء فيها. وكتابه « إميل » حسن الأسلوب، جميل الصوغ، بديع التأثير، تتمشى مطالبه فى العواطف تمشى الروح فى الجسم.

وقد أوزع الله النفس أن تتعشق المحسنات التى هى أصول للمعانى الذهنية. فإما أن تسمو فتتعلق بالفضائل وتنفر من الرذائل فتكون مندرجة تحت هذا الخطاب: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾. وإما أن تنكص على عقبها، وتنزع إلى العالم المادى، وتتلوث برذائله وأوضاره فتبوء بالشر ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾.

والحركات الإرادية مناط الثواب والعقاب، وبها تقاس درجة الميول الكسبية.

ورأى « كانت » أن الطفل منذ ولادته إلى سن محدودة ليس له حياة أدبية، لا تنسب فطرته إلى الخير ولا إلى الشر لأنه لا يعقل ما يفعل، وعشاق هذا الرأى لا ينكرون الوساطة بين الخير والشر.

إلى هنا مرت بك آراء الحكماء فى نزعات الفطرة وهى أربعة ولا أريد أن أتصدى لنقدها، وتمييز غثها من سمينها، وإنما أرجو من الإنسان العاقل إنعام النظر فى مضمونها ومحتواها، وأعرض عليه شبهات تحوم حول عقيدة فطرة الشر التى مقتها كبار المربين. فعشاقها يعتقدون أن الأرض إذا أهملت من الزراعة أنبتت الشوك

كبار المربين. فعشاقها يعتقدون أن الأرض إذا أهملت من الزراعة أنبتت الشوك بطبيعتها. وهذا مردود لأن إهمالها من الزراعة يجعل الفطرة الطاهرة خاضعة لما تلقيه الرياح اللواقح من البذور. وأن الشوك النابت فى البور ليس ناتجا من فطرتها الخبيثة بل من إهمال تعهدها. وليس من الحكمة أن تطلق الدابة تعيث فى الأرض فسادا ثم تنحى باللوم على طبيعتها.

كذلك يعتقدون أن الطفل فيه قسوة وجبروت، يمسك الطائر بلا رحمة ويسومه العذاب، ويتناول الشيء فيفرّق أوصاله. وليس اعتقادهم وجيها، لأن خلو فكر الطفل من الحقائق دفعه إلى مزاولة التجارب، فيحل العناصر ويعقدها، ليستخرج من أعماله حقائق يلتذ بوجودها.

كذلك يعتقدون أن الطفل يسرق. ولو علموا أنه ساذج جاهل لمعنى التملك ما اعتقدوا ذلك، أما كونه يعد نفسه مالكة لكل ما يجده فمسلم، ولكن هذا راجع إلى حبه الغريزى للحياة ،وإلى جهله معنى التملك فى مصطلح المجتمع الإنسانى.

كذلك ينسبون إليه الصلف والكبرياء، والحقيقة أن الآباء يطرون أبناءهم ويغلون فى مديحهم فيخدمونهم ويغرونهم ويتساهلون فى عرض الأمور عليهم بعيدين عن الحيطة والتدبر، فيثبت فى ذهن الطفل هذا الأثر الرديء، ومرجع ذلك حمقهم، وطبيعة الطفل من ذلك بريئة.

كذلك يتهمونه بالشره. ولم يوصم بهذه الخصلة إلا بانغماسه فى النعيم. ولو أنهم أبعدوه عن مظاهر الترف، وصرفوه عن العادات المزرية، وحالوا بينه وبين البيئة السيئة لوجدوا منه شخصا كريم الطباع.

كذلك ينسبون إليه الكذب وما صدقوا فيما وهموا ولو فطنوا لعلموا أن الكذب أثر لازم للخشونة التى يلقاها الناشئ من قساة المعلمين فيختلق الكذب ليتلمس النجاة من العقاب ، ويحاول الهرب من شر مستطير ويسدل على الحقيقة غشاءً كثيفا.

الإناء مثلا. فينسى الطفل الحق عند الإجابة، تخلصا من شر العقوبة وحبا فى السلامة.

كذلك يكذب أحيانا فى ادعاء الإفلاس وهو موسر، لأنه يخاف طمع الطامعين فى ماله.

ونراه أحيانا يكذب ونتحرى السبب فنجده مرضًا قَلب كيانه وجعل الباطل أمامه حقا، وقد روى أن طفلا كان مضطجعا فى فراشه، ولما غابت عنه خادمته رأى كأن الشمعة المضاءة فى الحجرة قد استطالت حتى زاد طولها على متر، ثم تقدمت إليه مرة وابتعدت عنه أخرى. قص هذا على خادمته فاعتقدت أنه كاذب، ثم دعت إليه أمه فقص عليها الرواية عينها واهما أنها حق لا ريب فيه. ولما استجلت الحقيقة تبين لها أنه مصاب باضطراب عصبى مشفوع بحمى، ومن كان هذا شأنه فإنه يهذى.

يتصرف المعلم تصرفا قاسيا، فيسوق إليه المعانى الدقيقة مجردة من ثوبها الحسى فيشت ذهنه ويضل عن الحق، فيلتجئ إلى الكذب فيلفق منه ما يشاء، وإلى الوشايات فيفترى بها على من يشاء، شأن من لا يميز الغث من السمين، والخطأ من الصواب، وشأن من لا يفرّق بين الإساءة والإحسان، ومن لا يوازن بين الإحسان والإحسان.

إذا زالت كل هذه العوائق وصلح مزاج الطفل، سرى الأثر الواقع على الحواس إلى الأعضاء المنفذة، وفعل الفعل الذى يرشد إليه وجدانه فتجده يلتزم الصراحة والصدق حتى يعتادهما.

فطرة الرجل والمرأة :

ذهب سقراط وأفلاطون إلى أنه ليس بين الرجل والمرأة تفاوت كبير فى القوى العقلية. ولذلك لم يفرقا بينهما فى العلوم التى يجب عليهما دراستها. وعارضهما

العقلية. ولذلك لم يفرقا بينهما فى العلوم التى يجب عليهما دراستها. وعارضهما أرسطو بأن الطبيعة البشرية فرقت بين طبيعتهما فميزت الرجل بالقوة، وخصت المرأة بأنواع المتاعب تقاسيها زمن الحيض والحمل والوضع والرضاعة. وهذا التخلف دعاه لأن يرسم لكل من الرجل والمرأة نظاما يلائم المزاج.

ولقد وفق المربون بين رأيهما فرأوا أن لا تفاوت بين الولد والبنت فى غضون السنوات السبع الأولى، فلا غضاضة إذا اشتركا معا فى نظام واحد. ثم تنفرج زاوية الخلاف بينهما فى زمن المراهقة، إذ البنت تدخل سريعا فى طول النماء، وهذا يستنزف نشاطها ويصيرها عرضة للأمراض العصبية، وقد دل الإحصاء على انتشار الأمراض بين البنات وهن فى طور التعلم. قرروا هذا مستندين إلى أن وزن دماغ الرجل أثقل بنحو ١٠٪ منه فى المرأة، وثقل المخ من دواعى الفطنة والذكاء، ويناسبهن حينئذ أن يكون بين دروسهن شيء من فنون الجمال، ليبعث فيهن الشوق إلى التعلم يدفعهن إلى مقاومة أسباب الفتور.

نعم يتبادر للمطلع على هذه النسبة أن الرجل أقدر من المرأة على الحركات العقلية، غير أنه إذا نظر من جهة أخرى إلى أن نسبة ثقل المخ إلى ثقل الجسم فى المرأة أوفر منها فى الرجل، يتبين له أن لكل منهما مواهب يكونان بها قويين أو ضعيفين إذا قاما بالواجب أو قصرا فيه. أما ما يشاهد من رجحان القوى البدنية فى الرجل فلما يستلزمه جهاده وصبره للحصول على القوت، وأما هى فقد قصرتها العادات القومية على إدارة المنزل، فلم تتمتع بما يتمتع به الرجل من مساكنة الطبيعة، وتمرين الأعضاء تمرينا يدعو إلى نموها وازدياد قوتها.